دعبل الخزاعي

تأليف السيد محسن الأمين

للاستاذ ابراهيم الوائلي

ليس من شك في أن دعبلا الخزاعي من أشهر شعراء القرنين الثاني والثالث للهجرة فقد تطرق في نظمه إلى مختلف المواضيع وتعرض بشعره إلى كثير من الأشخاص، وعرض نفسه إلى شتى المخاطر حتى انتهت حياته إلى الاغتيال وهو بعيد عن أهله ووطنه.

ولقد نظر مؤرخو الآداب إلى هذا الشاعر من زاوية المقاييس العامة التي حددوا بها الشعر القديم فسموه شاعراً هجاء مقذعاً في هجائه وشاركهم في الرأي بعض المؤرخين المحدثين، ولكننا حين ننظر إلى هذا الشاعر نظرة فيها شيء من العمق والتحليل نستطيع أن نسميه شاعراً سياسياً وإن يكن في شعره مايسمى هجاء بالمعنى الدقيق لأن بعض الذين تناولهم ليس له خطر في المجتمع.

وليس من شك في أن شعر دعبل يمثل حياته المضطربة ونفسه الثائرة ونوازعه المذهبية التي دفعت به إلى كثير من المخاطر، وما تعرض به للخلفاء العباسيين يمثل صفحة كبيرة من الشعر السياسي العارم في العصر العباسي الأول وليست السياسة بأكثر من أن يتعرض الرشيد وأولاده وأحفاده ويتناولهم تناولاً شديد الوقع على أنفسهم حتى أغضبهم واق منهم الجفوة والمنت كما اق منهم الحظوة والتكريم، يقربه الرشيد ويرفع من منزلته فيناله بعد موته، ويصفح عنه المأمون فيقابل هذا الصفح بالتمرد والطعن، ويشنع على أبي عباد وزير المأمون فلا يجد منه غير السكوت، ويسخر بإبراهيم بن المهدي أشد السخرية ويتندر بالأمين والمعتصم، ويغضب المتوكل فلا يسلم منه إلا بالهرب، ويتجاوزهم إلى غيرهم من ذوي المكانة في المجتمع حتى نعته مؤرخو الآداب بنعوت شتى من سلاطة اللسان وإفحاش الكلام وأقذاع الهجو، وكل هذه النعوت التي وصفوا بها الشاعر مردها إلى تلك النظرة السطحية التي لم تتوغل إلى دخيلة القلب ولم تتعمق في مطاوي النفس، مع أن الأمر أيسر مما تصوروه في هذا الشاعر. ولو أنهم أرجعوا هذه الثورة إلى منابعها الأصلية ودوافعها الذاتية لأنصفوا الشاعر وأعطوه نصيبه من الدراسة التي تفيد وأفادوا من شعره في تاريخ الأدب السياسي، وما هذه المنابع والدوافع إلا عقيدة الشاعر ومذهبه؛ فقد كان دعبل ممن يوالون آل علي ويتعصبون لهم، وقد مدح أحياءهم مدحاً قوي العاطفة والإحساس، وبكى شهداءهم بكاء سخي الدموع شديد الحزن، وكان من البديهي أن يقف الشاعر من خصومهم موقفاً لا يرضي الخصوم وأن يتعصب لأوليائه ويدافع عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فالرشيد قد آذى الامام الرضا وسجنه وهو من أئمة دعبل، والمأمون يبايع الرضا بولاية العهد ثم ينكل عن هذه البيعة، والمتوكل يغضب الشيعة ويطاردهم حتى في ضريح الامام الحسين، وابراهيم بن المهدي يبايعه الناس في بغداد عناداً للمأمون في موقفه الأول من الامام الرضا، وابراهيم هو من هو في لهوه وعجونه، وأبو عباد وزير المأمون كان شرس الخلق جافي الطبع.

إن من الحق لدعبل — وهو يتولى آل علي — أن ينتصف لهم ويدافع عنهم ويندد بخصومهم ولو ناله ما ناله من الأذى والتشريد لأن هذا جزء من عقيدته الدينية ومذهبه. وليس بغريب عليه أن يتعصب لعقيدته ومذهبه ما دام يجد في هذا التعصب لذاته الروحية واطمئنانه النفسي، وما دام يرى آل علي أصلح من غيرهم لرعاية دينه وعقيدته وأولى بالحكم من سواهم.

هذه النقطة الدقيقة في تاريخ هذا الشاعر وجدنا منها لمحة عابرة في كتاب «دعبل الخزاعي» لسماحة العلامة السيد محسن الأمين وهو كتيب صغير ألف في الأيام القريبة وطبع في دمشق.

وكنا نود أن تكون هذه النقطة موضع عناية المؤلف الجليل ولكنه لم يفعل ذلك جرياً مع عادته في التأليف إذ أنه يعنى بالترجمة وجمع ما تفرق من أخبار المترجم له وتتبع حياته الأدبية والمادية إذا كان للثانية صلة بالأولى دون إطالة في التحليل أو عمق في الدراسة، على أنه لا ينسى أن يمحص الأخبار التي ينقلها عن حياة الشاعر ويطرح الزائف منها وينقد المشكوك فيه ويقارن ويوازن وكثيراً

وكثيراً ما يستنبط من الخبر الواحد فوائد كثيرة تدل على ميله إلى التحليل والتعمق، ولكنه ميل قليل بالنسبة لطريقته العامة التي أشرنا إليها والتي تتجلى لنا في هذا الكتيب الصغير الذي جمع فيه معظم ما تحدث به المؤرخون عن دعبل الخزاعي وعن مواقفه من الخلفاء وصلته بهم ومقدار ما ظفر به من إطراء وتنويه بشاعريته . ثم علاقته بآل علي ومدحه إياهم . وفي الكتاب منتخبات كثيرة من شعر دعبل في المديح وفي السياسة ، وقصيدته التائية المشهورة في آل البيت التي يمدحهم بها ويستعرض مصارع الشهداء منهم استعراضاً حزيناً باكياً وغير ذلك من المقطوعات .

وعمل هذا الكتاب عمل ضئيل بالنسبة لما أنتجه سماحة السيد الأمين من كتب وموسوعات في الأدب والشعر إلى جانبه كتبه الدينية النافعة .

ابراهيم الوائلي

أجـــواء

تأليف الاستاذ حسن محمود

للاستاذ ابراهيم محمد نجا

كتاب صغير الحجم ، قليل الثمن ، ولكنه على صغر حجمه ، وقلة ثمنه ، يجمع بين القيمة الفنية الكاملة ، والمتاع النفسي الوفير .

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ حسن محمود ، وهو كاتب قصصي من طراز رفيع ، يعمل للمجد الأدبي ، دون أن يحفل بالشهرة الزائفة ، ولذلك يعنى كل العناية بجودة إنتاجه وإتقانه ، لا بكثرته والاسراع فيه .

وهذا الكتاب يضم طائفة من الأقاصيص ذات أجواء مختلفة بعضها يمثل الحياة المصرية التي يعرفها الأستاذ عن خبرة وتجربة ، وبعضها الآخر يمثل الحياة الأوربية التي ألم بها في رحلاته وأسفاره ، وإن كانت هذه الأجواء المختلفة تتفق في أنها تصور النفس البشرية ، في إطارها من الحياة الانسانية العامة .

وكثيرون من كتاب القصة المصرية يهدفون في قصصهم إلى إثارة القارىء إثارة حسية ، إما بالاكثار من وصف أجساد النساء ، وإما بالاعتماد على الحوادث الضخمة المثيرة ، وإن كانت في صميمها فارغة من المعاني والدلالات ! ولكن هؤلاء لا يفهمون فن القصة ، ولا يعرفون رسالتها الفنية ، وإنما يعرفون ويفهمون شيئاً واحداً هو اكتساب الشهرة الزائفة ، بتملق غرائز الجماهير !

أما الأستاذ حسن محمود ، فإنه يعنى في قصصه أول ما يعنى ، بإبراز الأثر الداخلي الذي تعكسه الحوادث الخارجية في نفوس شخصياته ، لا لذاتها ، ولا لتعمد إثارتها ، ولكن لأثرها النفسي ، ومن ثم تكون الحادثة الصغيرة لها حظ كبير ، لأنه يعرف كيف يستلهم منها المعاني الكبيرة ، وكيف يستخرج منها الدلائل العميقة ، وهذه هي المقدرة ، وتلك هي البراعة . وشيء آخر يتصل بذلك ، هو أن الأستاذ حين رسم شخصياته لا يعتمد في ذلك على الألفاظ وحدها يسرد بها أوصاف تلك الشخصيات سرداً متتابعاً ، كما يفعل بعض كتاب القصة عندنا ، ولكنه يوزع لمساته التصويرية على أجزاء القصة كلها ؛ ليتسنى له استخدام الحوادث في الرسم والتصوير ، فلا ينتهي من القصة حتى تكون شخصياتها قد استوفت حظها من دقة التصوير ، وبلغت قسطها من قوة الحياة .

وقد قلنا إن الأستاذ حسن محمود لا يعتمد في إثارة قارئه على الحوادث الضخمة المثيرة ؛ ونزيد هنا أن مادة قصصه لهذا السبب تمتاز في مجموعها بالبساطة والعمق ؛ لأنه يتناول الحادثة البسيطة في مظهرها الخارجي ، فيتعمقها بفكره وروحه وتجاربه ، ثم يعرضها لنا ، فنرى فيها ما لم نكن نرى ، ونفهم عنها ما لم نكن نفهم ، فهو من أولئك الملهمين الذين يلتقطون الفتات المتساقط من مائدة الحياة ، فيحيلونه بفنهم أعظم غذاء للنفس الانسانية ، في حياتها المثالية الرفيعة !

وأسلوب الأستاذ في قصصه ، يلائم مادة هذه القصص كل الملاءمة ؛ فهو مثلها بسيط عميق ، ينساب كالماء في رقة ودعة ، لا من سهولة مجراه ، ولكن من طبيعة مسراه ، فلا ترى فيه المبارات الطنانة ، والكلمات الضخمة ، وإنما هي كلمات طبيعية يؤلف بينها في حذق وبراعة ، فإذا هي عميقة الدلالة ، قوية الايحاء ، وافرة الأنغام والأصداء ، والأضواء والظلال !

والأستاذ هادىء الشخصية ، كما يبدو من خلال أسلوبه ، وطريقة عرضه لقصصه ، هادىء حتى حين يريد أن يسخر من بعض الناس سخرية خفية مبطنة ، فتراه يفعل ذلك فى شىء أقرب إلى الحياء ، وبصورة لبقة مهذبة قد تثير الضحك ، ولكنها على كل حال لا تجرح الاحساس !

وهو هادىء أيضاً حين يلمس فى قصصه أحزان الناس ومآسيهم ، وليس ذلك من قلة تأثره بها ، ولكن لأنه من أولئك الذين يحزنون فى صمت ، فيكون صمتهم أبلغ من كل كلام حزين ! وصراخ الانسان قد يثير الفضول أكثر مما يثير الرثاء والاشفاق ، ولكن دمعة واحدة تذرفها عين محزون ، فى صمت وسكون ، تهز النفوس ، وتثير الدموع !

وهو حين يسجل الانفعالات النفسية لشخصية إنسانية ، يحيطها بما يلائمها من الأجواء والمشاهد ، فيكون ذلك منها بمنزلة الاطار من الصورة . يتجلى ذلك فى قصته « نظرة إلى شاعر » . ففى هذه القصة تراه يرصد الانفعالات النفسية كما تظهر فى شخصية شاعر ركب معه القطار الذاهب من مدينة « بون » الألمانية ، إلى « كوبلنز » ، ويسجل مع هذه الانفعالات المختلفة ، ما يطرأ على مشاهد الطبيعة من تغير واختلاف ، بحيث يجعل من ذلك كله وحدة متناسقة .

وهو ينتقل بشخصياته من جو إلى جو ، ومن حال إلى حال ، بعد أن يمهد لذلك تمهيداً مناسباً ، بحيث يبدو هذا الانتقال طبيعياً ممكناً ، لا أثر فيه للتكلف والاستحالة ، وهو يقتصد فى طريقة عرضه ، بحيث يتجنب الحواشى والفضول ، كما يقتصد فى تعبيره بحيث يخلص فى لباقة من الكلام المكرر المألوف إن لم يكن منه بد فى موضع من مواضع القصة ؛ ففى قصة « قسم » نرى حسيناً يسير بعد الغروب فى طريق مهجورة ، ثم يتنبه فجأة لوقع أقدام تطأ الأرض بخفة ، فيلتفت وراءه ، فاذا فتاة مصرية غضة الشباب هيفاء القوام تسير مثله فى هذه الطريق ... فلو أن قصاصاً آخر عرض لمثل هذا الموقف فى قصة من قصصه ، لاستغله كما يشاء ، فى كلام كثير ، وحوار طويل يثير الحس ، وينبه الغرائز .

ولكن الأستاذ حسن محمود يكتفى فى هذا الموضع بأن يقول : ارتاحت نفس حسين لمنظر هذه الفتاة ، فسار إلى أن حاذاها عازماً على أن يكلمها بأية وسيلة ، ولسنا نريد أن نقص كيف بدأ الحديث فان حسيناً لا يذكر كيف كان ذلك ، ونحن لا نود أن نفضح سرها ، ولكننا نقول أننا رأيناهما يسيران جنباً إلى جنب ، ثم كانا بعد نصف ساعة فى سيارة تسير بهما سريعاً إلى حيث مسكن الفتاة » . وهذا غاية فى حسن الايجاز ، وبراعة التخلص .

وللاستاذ حسن محمود ملاحظات صائبة ، ينثرها فى خلال قصصه وهى ملاحظات تنم عن تجارب كثيرة ، وثقافة واسعة ، وفهم عميق للحياة .

أما بعد ، فقد حلقت فى هذه الأجواء حيناً من الزمن ، فأتاح لى ذلك لذة روحية عميقة ، ومتعة نفسية كاملة ، فمن واجبى أن أوجه إلى صاحب هذه الأجواء ، شكرى الخالص لما أتاح لى ، ومن واجبى كذلك أن أعبر له عن تقديرى الصادق لمقدرته الفنية . وأنا أعلم أنه لن يرضى عما كتبته عنه ، تواضعاً منه وحياء ؛ فقد عرفته جم التواضع ، وافر الحياء . ولكن ما ذنبى أنا ، وما كتبته هو الحق والحق ينبغى أن يقال ؟

ابراهيم محمد نجا

احمد حسن الزيات

يقدم

تاريخ الأدب العربى

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى .

طبع عشر مرات فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد